

الهجاء السياسي في مسرحيات أريستوفان

من الأمور التي تتردد عادة على خاطر المشتغلين بالأدب كما عرض متحدث أماسهم لكاتب من الكتاب المعاصرين التساؤل عن آثار هذا الشاعر أو القصصى أفيها ما يضمن لها شيئاً من البقاء والتأثير في نفوس الأجيال المقبلة؟ وليس من الغريب أو النادر أن نرى النقاد يتحدثون عن بعض الكتاب قاطعين بثقة أن مؤلفاتهم ذاهبة دون شك مع سيرتهم . ويمر الزمان بالنقاد فيظهر صدق حكمه أو كذبه ، وتأتي الأيام أحياناً بعكس ما كان يتوقع البعض ، فيكف الناس عن قراءة كتب كان المعاصرون يخالونها خالدة ، ويتهالك الناس على مؤلفات كان الجميع يتحدثون عنها يوم نشرها في شئ من الاستخفاف والاحتقار . وأقطع مثل لذلك فولتير الذي كان يظن ويظن معه الناس أن رواياته المسرحية هي أحسن ما أنتج ، وأن قصصه الفلسفية ليست إلا مداعبات فنية أراد فولتير أن يشغل بها أوقات فراغه ليلهو بها القارىء ويستريح إليها من التفكير المضمنى . والواقع أن مسرحيات فولتير لا يقرأها اليوم إلا الباحث في أدب القرن الثامن عشر عامة ، وفي آثار فولتير بنوع خاص ، على حين تتعاقب طبعات قصصه الفلسفية ويتسابق الفنانون إلى إخراجها في أناقة مزينة بالصور والرسوم .

وإذا كان الشعر من الآثار الفنية التي تبقى حية لما فيها من وصف خالد للشعور ، ومن صور لتجارب إنسانية يعانها كل فرد ، ومن إيماء إلى آمال وأحلام ملازمة لكل عصر ولكل جيل ، فالمسرحيات والهزلية منها بنوع خاص تقل فيها تلك العناصر . وقد استنبط برجسون في كتابه - وعنوانه «الضحك» - الأسباب التي تدفعنا إلى الضحك ، وخصص ناحية من بحثه للإيماء ووصفه بالعنصر الأساسى للضحك . وقد يضطر الكاتب في أكثر من مناسبة ليثير الضحك (ومن الكتاب من ينسى أن الضحك على أنواعه هو الغرض الأخير لكل المسرحيات الهزلية)

إلى استغلال حوادث تاريخية أو أوضاع اجتماعية أو شخصيات سياسية يكفى أن يشير إليها ليضمن لروايته النجاح وللمتفرجين السلوة والمرح .

وفى مسرحيات أريسطوفان إشارات لا نصحك لها إلا بعد الرجوع إلى البيئة التى عاش فيها والوقائع التى يسخر منها أى - بعبارة أخرى - بعد الرجوع إلى التاريخ اليونانى فى القرن الخامس قبل الميلاد ؛ فتكشف لنا وقتئذ الكلمات عن معان كنا نجهلها ، وتثير العبارات ضحكا كان يردنا عنه جهلنا لما تحتويه من دوافع إلى الضحك . وقد نشأت فكرة هذا البحث عن حرصنا على ألا تفوتنا فرصة للضحك ، وعن اطلاعنا على بعض المراجع مثل تاريخ الأدب اليونانى « لألكسيس بيرون سنة ١٨٩٤ والجزء الثالث من تاريخ الأدب نفسه لألفريد موريس كروزيه سنة ١٩١٣ ودراسات فى أدب أريسطوفان لإميل ديشانيلى سنة ١٨٧٦ والمقدمة لآثار أريسطوفان فى مجموعة بوديه G. Budé بقلم فيكتور كولون ، والتعليقات على كل رواية بقلم فان ديل سنة ١٩٣٤ ؛ وأخيراً الكتاب القيم عن أريسطوفان والأحزاب فى أثينا بقلم موريس كروزيه سنة ١٩٠٦ » . ولما كان الهجاء على اختلاف أنواعه من ضروب الأدب الفردى المتصل بحياة الكاتب ، فسناحاول أن نعطي القارى فكرة وجيزة عن أريسطوفان وعن بعض مؤلفاته .

من الأجزاء التى تتكون منها المسرحيات الهزلية اليونانية جزء يسمى « الاستطراد » parabase وهو عادة فى آخر النصف الأول من المسرحية ، يتجه فيه الشاعر مباشرة إلى مستمعيه . وهو فى أغلب الأحيان حديث ينتخر فيه تارة صاحبه بما أقدم عليه من عمل جرى فى مهاربته أو نقده لحاكم أو زعيم ، وتارة أخرى يؤاخذ الحاضرين على سوء إدراكهم لرواية سابقة ، أو يطلعهم على ما يجرى فى نفسه من شك أو أمل أو قنوط كلما فكر فى هذا الزعيم أو ذلك من المستبدين بالشعب المسيطرين على عقله المزدرين لشعوره . وسيرة أريسطوفان التى نقرأها فى التراجم القديمة وفى الكتب الحديثة عن الأدب اليونانى نجد تفاصيلها منتشرة فى المسرحيات التى وصلتنا فى صفحات الاستطراد الذى أشرنا إليه .

وكذلك نعلم أن أريسطوفان ولد فى نحو سنة ٤٤٤ ق.م وكان أبواه فيليب وزينودورا من أحرار الأثينيين . وكان لأسرته فى مدينة ايجيين حيث استقرت سنة ٤٣٠ أرض تستغلها وقد يتعذر علينا أن نعرف بدقة المبادئ التى شب عليها

أريستوفان والعوامل الثقافية التي أثرت في تكوين عقله . ولكن هناك أسراً لا ريب فيه ، وهو أن عبقرية أريستوفان ظهرت جليا وهو في الثامنة عشرة من عمره في مسرحية نال بها الجائزة الثانية في مسابقة سنة ٤٢٧ وفي العام التالي مثلت له مسرحية « الباييليين » وهي عبارة عن نقد عنيف لسياسة عهده وهجاء لاذع يقذف به الزعيم كليون . ولم يغفر له كليون هذه الجراة بل قدمه أمام مجلس الشيوخ لمحاكمته . ولم يكن أريستوفان من الذين تهزهم الحن أو تثبط همهم . ففي سنة ٤٢٥ قدم مسرحية « الأكرنيين » ثم « الفرسان » سنة ٤٢٤ وهي أكثر مسرحياته شجاعة وأشنعها هجاء . ومع شهرته الواسعة فإنه لم يحصل في سنة ٤٢٣ إلا على المرتبة الثالثة بمسرحية « السحاب » التي عرض فيها لأساليب التربية الجديدة ، كما أخذ يسخر سنة ٤٢٢ من داء القضاء في مسرحية عنوانها « الزناير » وقد تبعها مسرحية « السلم » سنة ٤٢١ و « العصافير » سنة ٤١٤ و « ليزيزترات » سنة ٤١١ و « بلوتوس » سنة ٤٠٩ . وفي سنة ٤٠٥ لأول مرة فاز بالمرتبة الأولى بمسرحية « الضفادع » وهي خير ما أنتج في الهجاء الأدبي ونجد فيها مقارنة بين أوريبيدوس وإسكيلوس .

وفي ذلك الحين حدث انقلاب في أثينا عندما قهرها ليزندر ، فاجت الحياة واضطر الشعب أن يلجأ إلى العنف والحرب الأهلية ليخلص من نير « الثلاثين » وليعيد نظام الديمقراطية . كل هذا أضعف الدولة وصرف الجماهير عن اللهو البريء وعن إقامة الحفلات . وأول من فطن لهذا التغيير هو أريستوفان ، فتمشى مع الروح الجديدة وساير معاصريه ، فلم يتحفهم بمثل المسرحيات الخالدة التي أشرنا إليها ولم يطرق باب الهجاء السياسي كما ألفه في أول عهده بالمسرح ولكنه لم يكف عن الإنتاج الأدبي . ففي سنة ٣٩٢ مثلت له مسرحية « جمعية النساء » وهو يسخر فيها من النظريات الشيوعية التي كانت موضع جدال في المدارس الفلسفية . وعاد سنة ٣٨٨ إلى مسرحية « بلوتس » فعدّل فيها وبدل ، وهي أيضاً من القصص الاجتماعية الخطيرة عن مشكلة توزيع الأموال . ويتقطع هنا عهدنا بأريستوفان ولا نجد فائدة من ذكر المسرحيات التي لا تعرف سنها إلا عناوينها أو بعض أشعار ضئيلة . وحسبنا أن نعرف أن عدد مسرحيات أريستوفان على أقل تقدير ٤٤ مسرحية ، وأن من بين المؤرخين من يعتقد أنه ٤٥ مسرحية . وعلى كل حال فقد بلغتنا إحدى عشرة سنها .

ولما كان أريسطوفان ينشر مسرحياته بعد زمن قصير من تمثيلها ، فالنص الذى تقرؤه اليوم صورة للنص الأول الذى أشرف المؤلف على نسخته .

مما يقرب المسرحيات الهزلية إلى الحقائق الواقعية اتجاهها نحو الهجاء . وهناك ثلاثة موضوعات حاول الكتاب أن يعالجوها فى مؤلفاتهم ، وهى الأخلاق والعادات من جهة ، والسياسة من جهة أخرى ، والآداب من جهة ثالثة . وشاعر مثل أريسطوفان ترك لنا فيما ترك من مسرحيات نقداً شاملاً لعصره من النواحي الثلاث التى ذكرناها . ونحن لانظر اليوم إلا فى مسرحياته السياسية مع ملاحظة أن الهجاء السياسى ، وإن كان العنصر الجوهرى فى بعض مسرحياته ، متكرر فى أغلبها على شكل إشارة أو تلميح . وقد اضطر أريسطوفان كغيره من الشعراء الذين سبقوه إلى أن يثير العواطف القومية السائدة فى عصره — تلك التى كانت لاتمس حتى يجار الشعب بسخريته ونقده وتمكمه . ولابد من هذا الانسجام بين الجمهور والكتاب ، وبين موضوع الرواية والأمر التى تشغل بال الجمهور ، ليجوز الضحك ويستساغ الهجاء .

ولقد تواترت مسرحيات أريسطوفان وتلاحقت معها أساليب من الهجاء انفرد بلبداعها وبرع فى استعمالها ، فجاءت مرآة صادقة لما كان يتردد على ألسنة الأثينيين ويغلى فى قلوبهم من غضب وبغض واستنكار . وربما صادفوا من أريسطوفان هجاء يمسهم فيما أنفوه من عادات ودأبوا عليه من آراء ؛ غير أنهم كانوا يقبلون نقده وسخريته لما كانوا يعترفون له به من الإصابتة فيما بينهم وبين أنفسهم وهم المشهورون بحدة ذكائهم وحسن إدراكهم للأمر . ونحن عندما نعكف على دراسة الهجاء السياسى عند أريسطوفان تستوقفنا تفاصيل ربما كان الأثينيون يبرون بها مسرعين ، وتضيف إلى مشاعرنا أغراضاً ربما لم يعرض لها لإمصادفة ، ونعجب لآراء جريئة ربما صدرت عنه عفواً ، ولانمعن النظر فى ألوان من النقد ربما كان يعتبرها هو ومعاصروه أقوى ما فى المسرحية من عتاب وهجاء . وإليك نبذة عن الروايات التى يعتبرها النقاد الذى قرأنا بحوثهم واقتبسنا منها الكثير فى صميم عالم السياسة .

ليست مسرحية « الاكرينيين » أول محاولة لأريسطوفان فى باب الهجاء السياسى . وقد أشرنا فيما تقدم إلى مسرحية عنوانها « البابيليون » نقد فيها الشاعر

كليون نقداً مباشراً مندداً بالزعيم المتملق للشعب العايب بأموال الدولة . أما مسرحية « الأكرنيين » التي تهمننا الآن فاننا نفهم من سياق الحديث أنها كتبت تحت تأثير الغضب والأخذ بالثأر ؛ لأن كليون أبى إلا أن يقابل غلو الشاعر في النقد بشيء من العنف . والمسرحية دفاع عن السلم ؛ فقد طال النزاع وسفك الدماء والعباب ، ولم يتوقع فرد نهاية للحرب بين أثينا وسبرتا ؛ فقد عجز الأثيني ديكايوبوليس عن حمل هيئة الشعب على درس شروط الصلح ، فلجأ إلى توقيع هدنة شخصية مع العدو ، فلم يستجب له أحد بادئ الأمر بل تهاقت الجميع على لومه . ولكنه لم يضطرب لما شنوه عليه من عداة ، بل أخذ يثبت لهم أن الحرب بدعة بعض الساسة الطامعين في المال واللذة حتى بلغ منهم قصده . واقتنعوا أن أقطع دليل على حسن تفكيره السعة التي كان يعيش فيها على مقربة من أناس يقاسون مر الحياة وبؤسها .

أما مسرحية « الفرسان » سنة ٤٣٤ فهي أول مسرحية يتقدم بها أريستوفان باسمه . نرى خادمين ديموستين ولسيلس وهما يتظلمان إلى سيدهما ديموس (وهو يمثل شعب أثينا) من تصرفات البفلجوني (كليون) منذ دخوله البيت . وهما ذات يوم يستغلان نشوة زميلهما وإغراقه في النوم ويسلبان نص التنبؤات التي كان يقرؤها من حين إلى حين على سيده لاستمالته ، فيقع بصرهما على نص يشير إلى قهر كليون وإذعانه لغالبه وهو بائع . . . ويمر بهما البائع ويعلم منهما ما في الغيب من خير يخصه ومن مرتبة عالية سوف تسند إليه . ويحضه الخادمان على مطاردة كليون بمعاونة الفرسان وأهل الجاه . ثم يقبل كليون وهو يتأجج غيظاً ويفوه بالتهديد والنذير ، فيستعين ديموستين بالفرسان فيذيقه الفرسان ألواناً من الضرب لم تكن تحظر بهاله . وينشجع بائع المقائق فينشأ بينه وبين كليون نزاع شديد يخرج معه كليون مغلوباً ، ولكن يأتي إلا أن تكون له الكلمة الأخيرة ، فيطلب إلى منافسه أن يرفعا أمرهما إلى ديموس ليفصل بينهما . ويعصني ديموس إلى ثنائهما ويتقبل ما يجودان عليه من هدايا ، ثم يؤثر بائع المقائق على كليون ، ويعينه ناظراً على بيته ومدبراً لماله . ويأسف ديموس على ضلاله القديم ويقطع على نفسه عهداً بأن يعوض ما ضاع ويصلح ما فسد . وأخيراً يحكم على كليون بأن يرتدى ثوب بائع المقائق وبأن يتخذ حرفته ليبيع اللحم على أبواب المدينة .

ثم يستصحب ديمومن فتاة جميلة (وهى تمثل هدنة ثلاثين سنة) ليعيش معها فى الريف .

هذا ، ولا بد أن نرجع إلى تاريخ اليونان لنذكر معنى رواية « السلم » ، فقد فاز كليون بثقة الديمقراطيين واستأنف القتال ضد سبرتا ، ولكنه لقى حتفه فى معركة أنفيبوليس . وقد شعرت أثينا وسبرتا بعد حين بحاجة ماسة إلى السلم والسكينة . فجاهد كل من ملك سبرتا ونسياس زعيم الحزب المعتدل لإعادة الطمأنينة إلى النفوس ، واتفق الفريقان على توقيع الصلح على أن يرد كل فريق للآخر الأقطار التى استولى عليها أثناء الحرب مع احتفاظ أثينا بميناء فيسيا ، فدعت سبرتا حلفاءها للتشاور فوافق بعضهم على شروط الصلح واعترض عليها البعض لأسباب قومية واقتصادية . فكتب أريسطوفان مسرحيته ليشجع البعض على التمسك بنزعاتهم السلمية ولدعوة الآخرين إلى شىء من التأنى ، وهو من أجل ذلك لا يجادل فى السلم أهو مأمول أو محال ، وإنما يمثل عودة الحياة السهلة الهنيئة ليغرى بها قلوب الجميع .

ونستطيع الآن أن نلخص موضوع المسرحية فى كلمتين : يمتطى المزارع تربيجه دابة ويرتفع بها فى الهواء إلى أن يصل إلى الأولمب وقد هجره الآلهة تاركين مكانهم لعملاق يحسم الحرب ولرفيق له يهين نفسه لسحق المدن المتحاربة فى مهراس فخم ، وآلهة السلم كاسنة فى قاع مخفر على شكل كهف . ويجد اليونانيون على اختلاف ألوانهم لإخراج السلم من عزلتها ، وبعد مشقة وعناد يظهر تمثال السلم ، ويقدم الجميع الذبائح والقرايين ، وتنتهى المسرحية بالولائم والطرب .

وأخيراً يمكن اعتبار مسرحية « ليزيزترات » آخر محاولة من أريسطوفان لوقف القتال بين شعبى أثينا وسبرتا . قد منيت أثينا بالهزيمة فى صقلية وكان أجيس ملك سبرتا يحتل مدينة ديقلى على مسافة أربعة وعشرين كيلومتراً من أثينا فارتاع ، الشعب ووطن إلى ضرورة المقاومة . وفى أثناء ذلك تعاهدت سبرتا مع بلاد الفرس وضمنت ما كانت فى حاجة إليه من المال والأساطيل . فكتب أريسطوفان مسرحيته راجياً بامم البشرية أن يتصرف الجميع عن القتال ليدفعوا عن بلادهم شر الخضوع للأجنبي عدو الدنيا ، ولا يهتم الشاعر بتحديد المسئولية وهو لا يريد شيئاً إلا أن يذكر أولئك وهؤلاء أنهم من أصل واحد ويربطوهم

دين واحد ، وأن لم حقوقاً كما أن عليهم واجبات ، وأن الأفضل أن يقدر كل واحد خطوة الموقف ويعمل على تصفية الجو والضائر . فوجه أريسطوفان كلامه إلى نساء البلدين من زوجات وأمهات . وليوفق بين عرض كله جد وبين أصول المسرحية الهزلية اخترع الشاعر الموضوع الآتى :

« دعت ليزيزترات من النساء من يمثلن المدن المعادية ، وطلبت إليهن أن يتمردن على أزواجهن حتى يتم الصلح . فاحتجت واحدة منهن فى أول الأمر وكادت الفكرة تحقق لولا مهارة زعيمتهن . اقتنعت النساء شيئاً فشيئاً حتى قبلن وأقسمن ألا تلين الزوجة أمام زوجها أو على الأقل ألا تخضع له إذا لجأ إلى القوة إلا مضطرة ، ثم تحتل النساء وعلى رأسهن ليزيزترات حصن الأكروبول . وهنا تقدم جوقة الشيوخ لتصد النساء عن مقاومة لا طائل فيها وعن تشبث مضحك ومغزى فى آن واحد . ولكنهن يظهرن ثباتاً وإلحاحاً لا حد لها ويهددن الشيوخ . وأخيراً يأتى الرجال من كل صوب من حلفاء وأعداء ساخطين تارة ومستعطفين تارة أخرى ومتظلمين على كل حال من قسوة تلك المعاملة ومن ذلك الامتناع الذى لا طاقة لهم به ولا صبر لهم عليه وازدراء زوجاتهم لهم . وهم مستعدون أن ينفذوا كل ما تشير به أزواجهم وأن يأتوا بالمعجزات فى سبيل ما يبتغون من عطف وما يطلبون من وصل . فتبدأ فعلا المفاوضات وتنتهى إلى الصلح والوثام والطرب . »

إن الهجاء السياسى فى المسرحيات التى ذكرناها واضح كل الوضوح . وهدفه الأول والأخير هو كليون الرجل المتشبع بمذهب الديمقراطيين من سكان المدن ، وهو المشاغب الذى ندد أريسطوفان بخلقه السيئ وبميله الآثم إلى القسوة والاعتى وبعده عن الروح اليونانى الخفيف . انشق على بريكليس أيام حرب البلوبونيز . وفى سنة ٤٣٠ ع عندنا ثار الشعب على حاكمه كان كليون فى صف المهين ليفوز بثقة الشعب وعطفه . يلومه أريسطوفان على عنف الأساليب التى كان يتبعها لإقناع الشعب ، وعلى سوء سياسته الداخلية إذ أنه حاول بجميع الطرق هدم آراء الطبقات الراقية والغض من قدرها ومحو أثرها ، وهو فى سبيل هذا الغرض لا يترك غريزة خسيصة إلا استغلها . وهناك غرائز تذهب بالأفراد ، فكيف بالجماعات ، إلى حيث لا تريد . فهو تارة يرفع أجر القضاة ليبلغ رضاهم ، وتارة

يتم الناس ويقودهم أمام المحاكم ليظهر للشعب أنه الزعيم الوفى الأمين الساهر على مصالحه .

وسط أريسطوفان هجاءه على سياسة كليون الخارجية ؛ لأنه كان دائماً يحض أئينا على الطموح الباطل ، فلم يقنع بالسيادة على البحار بل كان يغرى الشعب بأحلام استعارية خلافة . وكان يعالج الشؤون الخارجية التى تتطلب مهارة وحكمة ودقة بمثل ما كان يبيده من استبداد وتطرف وانفراد فى الرأى والعمل . وكانت أفته البغيضة تحول بينه وبين التروى والتفكير الطويل . وكان أريسطوفان يمتقته لمعارضته التى لا هواده فيها لأى مشروع صلح . وكان الشاعر يعلم ما للحرب من ويلات ولا يفهم كيف يشجع امرؤ على متابعتها .

وكان النضال يثير غضب الشعب ، وبنوع خاص من اشتد عليه الدهر من الريفين الذين هجروا منازلهم خشية اكتساح العدو لأراضيهم وتساقطوا على أئينا من كل صوب ليأسنوا فيها ، لكنها ضاقت بهم وازدحمت مساكن الأهل والأصدقاء ، فلبجأوا إلى المعابد والقلاع ، وهم عرضة لحرب ضروس وأمراض فتاكة ، وقد نشأت عن هذا الضيق بالحياة ثورة على أعدائهم ورغبة ملحة فى مطاردتهم بكل ما أتيج لهم من القسوة والشجاعة . وأصبح إذذاك حديث السلم من الشجاعة التى ليس بعدها شجاعة . والجرأة من صفات الكاتب الحر الذى يقدر قداسة فنه ويرفع من شأنه غير مكترث بما تخلق له تلك الحرية من مشقة وهم . وكان أريسطوفان يعلم لكثرة ما جربه فى حياته أن الضحك دواء نافع ناجح يجد فيه الانسان شيئاً من التسلية والعزاء والنسيان ، ومخدراً لأعصاب متوترة ، وحلاً هيناً لصعاب يعجز الجد عن حلها . وربما فكر فرد غير أريسطوفان أن يلقى بالبراهين الدقيقة والأدلة القاطعة والاعتبارات النظرية ليقنع سامعيه بوجاهة رأيه . ولكن أريسطوفان شاعراً أكثر منه فيلسوفاً . لذلك نراه اتخذ فى رواياته السياسية طريقة الهجاء والتهمك ومحاربة المسئولين عن الحرب وعلى رأسهم كليون . فصور أهل عصره وقد أعياهم القتال ونهك قواهم وأفسد عليهم الجو ودس الاضطراب فى نفوسهم وأثار الانشقاق بينهم . فمنهم من يرغب صادقاً أن تعود أيام الهناء ، ومنهم من يعارض الفريق الأول ، ومنهم من لا يقدم على عمل ولا يفكر فى حل بل يكتفى بمشاهدة غيره وتشجيعه بالكلام حيث لا تنفع إلا الأعمال .

هجأ أريسطوفان كليون لشدة ما بين نظرياتها السياسية الجوهرية من تناقض

وما أبعد ما كان الأمد بين مؤيد للديمقراطية المعتدلة المحافظة على التراث الأدبي والخلقي القديم ، وبين رجل مثل كليون وأين ! كان السبيل إلى الوفاق بين كاتب يكره التعسف والغرور والطموح السرف ، وحاكم لا يحرص على طمأنينة الشعب وغضارة عيشه واحترام حرته !

كان كل منهما في عالم مختلف لا تجمع بينهما إلا تلك الساعات المضحكة كلما

أتيح للشاعر مناسبات النقد والهجاء .

ريموه فرينسي